

الحُزْن ومظاهره في شعرِ ابنِ خَفَاجَةَ الأندَلُسي

◀ أ.د. اسماعيل عباس جاسم(*)

وأعلمُ أنّ المرءَ للأرضِ أَكَلَةً فيا عَجَباً ان تَأْكَلِ إِبْنًا لَهَا أُمُّ
إذا اللهُ أَمْضَى الحُكْمَ فِينَا لِحِكْمَةٍ فلا حُجَّةٌ تُدلى هُنَاكَ وَلَا حَصْمٌ

ابن خَفَاجَةَ

المخلص:

جاء البحث ليثبت ان الشاعر الأندلسي ابن خَفَاجَةَ عانى من حالة الحُزْن التي اعتورته لروحٍ غير قليل من الزمن فهو في جانب من سنِّي عمره لبس لبوس الحُزْن والالام لأسباب عديدة ربما تكون قد اوصلته إلى حالات غير طبيعية لا يمكن لأي إنسان سوي ان ينحاز اليها.

لقد أكّد البحث وجود حالة الحُزْن عنده من خلال رصد ظواهرها المختلفة التي تم توضيحها بالشواهد الشعريّة التي تنطق بما كان يعانيه في حياته مدعومة بالدرس والتحليل المُفصّلين.

(*) كلية الآداب / جامعة الإمام الصادق (ع).

التقديم

في الشعر ميّزته به عن سواه^(٦)، وكان مؤداها ان تأثر الشعراء به^(٧)، وقد اثنى القدماء عليه فهذا ابن بسّام يصفه بـ (الناظم المطبوع)^(٨)، وأمّا ابن الأَبّار فيشير إلى إجادته (في النظم والنثر)^(٩) ولم يتأخر ابن سعيد عن التنويه بثقافته مشيراً إلى تفردّه (بين اشتات البديع)^(١٠)، ولنزعة ابن خَفَاجَةَ الوصّافة جلب اهتمامه جمال البيئَة في الأندلس فكان من بين بعض شعرائها الذين اغرّموا في وصف مظاهر جمال هذه البيئَة أنهاراً وأزهاراً ورياحيناً^(١١). (فالنفس يسرّها الماء والخضرة)^(١٢)، وإنّ مثل هذا الجمال يكون

(٦) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، صنعة أبي الحسن حازم القرطاجني تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، ١٩٦٦م / ٣٦٦.

(٧) يُنظر: وَفَيَاتُ الأعيانِ وَأنباءُ أبناءِ الزمان، ابن خَلْكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ج ١ الاول / ١٥٦.

(٨) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تأليف أبي الحسن عليّ بن بسّام الشنتريني، المتوفى في سنة ٥٤٢ هـ، تحقيق سالم مُصطَفَى البدريّ، ط ١، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ١٩٩٨م، ج ٣ / ٣٣٤.

(٩) التكملة لكتاب الصلة، أبو عبدالله محمد بن عبدالله المعروف بابن الأَبّار، تحقيق عزّت العطار الحسيني، مطبعة الحسين، القاهرة، ١٩٥٥م، ج ١ / ١٤٣.

(١٠) المُغْرِبُ فِي جِلِّ المُغْرِبِ لابن سعيد المُغْرِبِيّ، حَقَّقَهُ عليه، الدكتور شوقي ضيف، ط ٤، دار المعارف، القاهرة، ج ٢ / ٣٦٧.

(١١) يُنظر: الحياة العلميّة في مدينة بلنسية، كريم عجيل حسين، ط ١، ساعدت جامعة بغداد على نشره، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٦م / ٣٠٠.

(١٢) يُنظر: الحياة العلميّة في مدينة بلنسية، كريم عجيل حسين / ٢٩٩.

إذا كان هناك من يذهب إلى ان الشاعر الأندلسي ابن خَفَاجَةَ^(١) عاش عيشة لاهية طوال حياته فإنه بجانب للصواب فهو كما عاش مترفاً سالمًا في اوليات حياته فانه عاش في النصف الاخر من حياته حزيناً ولاسيما عند كهولته، ولهذا فان الباحث سيذهب إلى تناول الحالتين اللتين عاشهما. أما بالنسبة للحالة الاولى وهي حالة اللهو والترف والعبث فانها طغت على مدة شبابه وأنته في عزلته وحياته المترفة التي جعلته في غنى عن استماحة الحكّام صار لزاماً عليه ان يجهد في طلب العلوم وان يستمد من ثقافة عصره وان يهب حياته له^(٢)، (وقد طار صيته بما انشأ من الشعر في وصف الحدائق والرياض)^(٣)، ولشهرته سُمي بشاعر شرقي الأندلس، وكذلك الشاعر البستاني^(٤)، والجنّان^(٥)، فأصبح (صاحب نزعة

(١) هو: (أبو اسحاق ابراهيم بن أبي الفتح بن عبدالله الخفاجي). المطرب من أشعار اهل المغرب لأبي الخطاب عمر بن دحية الكلبي، ضبطه وشرحه الدكتور صلاح الدين الهوارى، الطبعَة الأولى، شركة ابناء شريف الانصاري، بيروت، لبنان، ٢٠٠٨م، / ١٠٣.

(٢) يُنظر: ابن خَفَاجَةَ الأندلسي، عبدالرحمن جُبَيْر، الطبعَة الأولى، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠م / ٢٩.

(٣) الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه، اميليو غريسيه غومس، ترجمه عن الاسبانية حسين مؤنس، مطبعة لجنة البيان العربيّ، القاهرة، ١٩٥٦م / ٥٩.

(٤) يُنظر: الطبيعة في الشعر الأندلسي، جودت الركابي، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٥٩م / ٣٤.

(٥) الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه، غومس / ٥٩.

ما جنة الخلد إلا في دياركم

وهذه كنت لو خيرت أختار

ولان ابن خفاجة إقتنص ملاذ الحياة وهذا في جبلة الإنسان أمرٌ اكده القرآن الكريم في قوله تعالى (زَيْنَ للناسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ...) (٢٠) فقد تغزل مبتعداً عن التصاون، فهو يُصمُّ أذنيه غير آبه بأحد ويهيم غير صاحٍ عن الغزل وهذا هو يقول (٢١):

(بسيط)

صِمِمْتُ سَمْعاً فَمَا أُصْغِي إِلَى الْعَدْلِ

وهِمْتُ قَلْباً فَمَا أَصْحُو عَنِ الْغَزْلِ

لا بل يبالغ في لهوه وعيشه، فيضيق دائرة الحياة مختزلاً الانس في زجاجة، والعيش في صرير سرير حين يقول (٢٢):

(طويل)

فما الانس إلا في مُجَاغِ زُجَاغَةٍ

وما العيش إلا في صرير سرير

واذا كان شاعرنا قد اخذ وطره من حياة الفرح والانس فإننا لا نعدم ردحاً غير قليل من الزمن عاشه حزيناً وهو يعاني الأسى والالم في حياة معكوسة لم يعهدها من قبل اسمها الحزن الذي انتهى به إلى جدته الباردي. قال ابن منظور: (الحزن والحزن نقيض الفرح وهو خلاف السرور) (٢٣).

(٢١) ديوان ابن خفاجة، ق ٩٧.

(٢٢) المصدّر نفسه، ق ١٣٥.

(٢٣) لسان العرب للإمام العلامة ابن منظور، طبعة مراجعة ومصححة بمعرفة نخبة من السادة الأساتذة المتخصصين، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٣م، مج ٢، مادة حَزَنَ.

(٢٤) القرآن الكريم، التوبة / ٤٠.

مدعاة لاستدعاء الشعر لا عسراً، فالنقاد يرون ان التطواف في (الرباع المحيلة، والرياض المعشبة) (١٣) سبب في انثيال الشعر، وابن خفاجة مغرمٌ وهائمٌ في وصف الطبيعة الذي يشغل حيزاً واسعاً من شعره في الوقت الذي يُعدّ فيه غرض الوصف أصلاً ترجع اليه معظم الأغراض الشعرية (١٤)، ومثل هذا الغرض على وفق قول الباحثين (هو ظرف كلّه، وذلك القول في الأوصاف...) (١٥)، على أنّ الطبيعة تبدو في شعره طروباً ضاحكة، ومسرّحاً من مسارح اللهو، ومقاصف الشراب (١٦). ويبدو انه استمتع بملاذ الحياة مع اصحابه في ظلال الطبيعة ومجالس الأُنس (١٧)، ولا نبعد كثيراً عن الصواب إذ قلنا ان ابن خفاجة قد اختصر وصف جمال الطبيعة الأندلسية اختصاراً يغنيا عن التوسع فيه حيث يصفها بجنة الحُسن (١٨).

(رمل)

إن للجنة بالأندلس

مُجْتَلَى حُسْنٍ وَرِيًّا نَفْسِ

وحيثما يصفها بجنة الخلد المختارة (١٩).

(بسيط)

(١٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تأليف أبي عليّ الحَسَن بن رشيق القيرواني، الأزدي، حَقَّقَهُ، وَفَصَّلَهُ، وَعَلَّقَ حَوَاشِيَهُ، محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٤، دار الجليل، بيروت، لبنان، ١٩٧٢م، ج ١ / ٢٠٦.

(١٤) يُنظَر: المصدّر نفسه، ج ٢ / ٢٩٤.

(١٥) العمدة، ابن رشيق، ج ١ / ١١٨.

(١٦) يُنظَر: في الأدب الأندلسي، دكتور جودت الركابي، دار المعارف، القاهرة / ١٠٨.

(١٧) يُنظَر: المصدّر نفسه / ١٠٦.

(١٨) ديوان ابن خفاجة، تحقيق سيد غازي، ط ٢، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٧٩م، ق ٨٨.

(١٩) المصدّر نفسه، ق ٣٠١.

(٢٠) القرآن الكريم، آل عمران / ١٤.

والْحُزْنَ عبء ثقيل لا يشفع منه الا الله سبحانه وتعالى ويُستدل على ذلك في ما ورد في قوله تعالى (الا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا)^(٢٤) وهو يُرث الهم، و(الهمُّ نصف الهرم)^(٢٥). وابن خَفَاجَةَ لم يعيش حياةً سويةً ولاسيما في الصفحة الثانية من عُمره إذ انه لم يكن يثقُ بأحدٍ، ولم يتزوج^(٢٦)، وكان يعاني شعوراً بالخوف من الموت فيصيح (يا ابراهيم تموت!)^(٢٧) هذا فضلاً عن إحساسه بالاحباط واليأس والركون إلى الاستسلام ولعلنا واجدون مثل ذلك في قوله^(٢٨):

(بسيط)

و الناس من مُعْرِضٍ يلهي ومُلتفتٍ

يرعى ومن ذاهلٍ ينسى ومُدَّكرٍ

نلهو بساحاتٍ أقوامٍ تُحدِّثنا

وقد مَضوا ففظوا أننا على الاثر

هذه الحالات النفسية التي كان ابن خَفَاجَةَ

يكابدها انعكست في شعره معاني حزينة^(٢٩)،

(٢٥) بنهج البلاغة وهو ما جمعه السيد الشريف الرضي

من خطب ووصايا وكتب وكلام امير المؤمنين علي بن

أبي طالب عليه السلام، شرح الشيخ محمد عبده، طبعة

جديدة منقحة، مصححة، خرَّج مصادره فاتن محمد

خليل اللبون مؤسسة التاريخ العربي للطباعة والنشر

والتوزيع بيروت، لبنان / ٥٣٢.

(٢٦) يُنظَر: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف

والمرابطين، الدكتور إحسان عباس، ط٦، دار الثقافة،

بيروت، لبنان، ١٩٨١م / ٢٠٥.

(٢٧) المصدر نفسه / ٢٠٥.

(٢٨) ديوان ابن خَفَاجَةَ، ق ٨٠.

(٢٩) يُنظَر: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين،

الدكتور إحسان عباس / ٢٠٤.

(٣٠) بُغية الملتبس في تاريخ رجال اهل الأندلس، الطيبي

وأناتٍ شجيّة وزفرات مُرّة. وكان هذا الهلع مدعاة لأن (يخرُّ مغشياً عليه)^(٣٠). وتشير المصادر إلى انه تنسك في آخر حياته (تنسك ابن أذينة واغتضى عن إرسال نظره في أعقاب الهوى عينه)^(٣١) بعد ان كان مخلوع الرسن في مجال مجون لا يراعي في اخذه بيد الانتهاك إلا ولا ذمّة^(٣٢) وبقي على هذا الطريق حتى وافته المنية في سنة ثلاث وثلاثين وخمسائة للهجرة^(٣٣). فحقت عليه كلمة الصدق في قوله تعالى: (فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً)^(٣٤). وبعد أن سلط البحثُ الضوء على حياته التي جمعت بين الضدين الفرح والحزن سيتواصل الحديث عن الموضوع الأساس في هذا البحث لذا فإن الدراسة جاءت مفصلة القول في الحزن ومظاهره، وقد اعتمد هذا التفصيل اربعة مظاهر كانت دلالات واضحة لتأكيد هذه الظاهرة عند ابن خَفَاجَةَ وهي المرض والشيخوخة، ثم الفراق، وأما المظهر الثالث فهو الجور على أن المظهر الرابع كان الاغتراب.

الكلمات المفتاحية: ابن خفاجة، الاندلسي،

مظاهر الحزن

أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة المتوفى سنة ٥٩٩هـ،

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة / ٢١٧.

(٣١) الذخيرة، ابن بسام، ج ٣ / ٣٣٤.

(٣٢) يُنظَر: قلائد العقيان في محاسن الاعيان، تأليف

أبي نصر الفتح بن عبدالله القيسي الاشبيلي، الشهر

بابن خاقان، ٥٢٩هـ، حَقَّقَهُ، وعلَّق عليه الدكتور يوسف

خريش، ط١، عالم الكتاب الحديث، الاردن، عمان، ٢٠١٠

م / ٧٤٠.

(٣٣) يُنظَر: التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، تحقيق

عزت العطار، ج١ / ١٤٤.

(٣٤) القرآن الكريم، التوبة / ٨٢.

(٣٥) يُنظَر: المطرب من أشعار اهل المغرب، ابن دحية /

١٠٨.

الدراسة

إلى القصر والاستثناء^(٣٧) ب (ما والأ) حيث انهما قصرتا الردع على الشبيبة ومنعتا حصوله لغيره، وكانتا مركزاً للوثوب إلى ما بقي من التفاصيل، فالشاعر فقد مُغريات الحياة فلا الفتاة تُقبل عليه ولا الغراب الاسحم يغطي رأسه بعد ان صار غراباً ابقعاً مستعيناً بما يعرف بلاغياً بالمقابلة^(٣٨).

وتتصاعد حدة الحُزن في نفس الشاعر فيتحسر على فقد شبابه مكرراً لفظة (آه) والتكرير على رأي الباحثين (يُقصد منه التأكيد)^(٣٩) على انه يواصل بث همومه وأحزانه فيُنكر الأشياء وتنكره ولم يرَ منها ما كان يراه ولم يسمع منها ما كان يسمعه لا بل بلغ ذلك التذكير حدود الثقة بالدهر والصحاب. والشيب عند العرب مكروه لأنه يمثل الشيوخوخة التي تمثل الحُزن في نفس صاحبها، ونُقل عنهم أنهم أنكروا البيضاء ثم صاروا ينكرون السوداء فذاك خيرٌ مبدول، وهذا شرٌ بدل^(٤٠). ولا غرو أن شاعرنا لم يخرج على هذا السياق الفطري

(٣٧) ترد الأ بالكسر والتشديد على اوجه اربعة (احدها ان تكون للاستثناء). مغني اللبيب عن كتب الاعاريب، لابن هشام الانصاري، حَقَّقَهُ، وفصله، وضبط غرائبه، محمد محي الدين عبدالحميد، مطبعة المدني، القاهرة، ج١ / ٧٠. (٣٨) المقابلة أن يؤتى (بمعنيين أو معانٍ متوافقة، ثم يؤتى بما يقابلها)، الاشارات والتنبيهات في علم البلاغة، تصنيف محمد أبي غليّ بن محمد الجرجاني، تحقيق الدكتور عبدالقادر حسين، دار نهضة مصر، القاهرة/٢١٢. (٣٩) التكرير بين المثير والتأثير الدكتور عزالدين السيد، ط٢، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦م / ٧. (٤٠) يُنظر: العقد الفريد، تأليف الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، المتوفى في ٣٢٨هـ، تحقيق الدكتور مفيد محمد قميحة، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦م، ج٢ / ١٢٨.

اولاً-المرض والشيوخوخة: إنَّ المرضَ والشيوخوخةَ والشكوى منهما ظاهرةٌ واضحةٌ في شعر ابن خَفَاجَةَ، وهي دليل على إحساسه بالحُزن فهو حين بلغ مرحلة الكهولة وفاته ما فات من ملذات الشبيبة أخذ يتحسر على ما كان له من معصية لله، ويتذكر أيام الشبابِ الزاهية وهنائه مع أحبائه يحزن على ما مضى وتنهمرُ دموعه كالمُزن في انصبابه ليتجرع كأس الحُزن والألم والأسى^(٣٥) فيها هو يشكو كثيراً من الشيوخوخة التي أَلَّتْ به في قوله^(٣٦):

(الطويل)

و ما راعني الأ تبسُّمُ شَيْبَةٍ
نَكَرْتُ لها وجهَ الفتاةِ تَجْهُمَا
فِعِفْتُ غُرَاباً يَصْدَعُ الشَّمْلَ أَبْقِعاً
وكان على عهدِ الشَّيْبَةِ أَفْحَمَا
فأه طويلاً ثم آه لكِبْرَةٍ
بَكَيْتُ على فقدِ الشبابِ بها دماً
و قد صِدِئْتُ مرآةَ طرْفِي ومسمعي
فما أجدُ الأشياءِ كالعهدِ فيهما
و هل ثَقَّةٌ في الدهرِ يحفظُ خِلَّةً

إذا غدرا بي صاحبان هُما هُما
فهي المفاجأة الكبرى، والمصاب الاعظم الذي صدمه إذ هو في الشطر الاول من البيت الاول يلجأ

(٣٦) ديوانُ ابنِ خَفَاجَةَ، ق ١٧٨.

فيستمر بالصراخ، والعيول والشكوى، من الشيب
والشيخوخة وما يترتب عليهما من المرض والحُزن
البالغ فهذا ابن خَفَاجَةَ حزين يشكو في قوله^(٤١):

(رمل)

أَيُّ عَيْشٍ أَوْ غِذَاءٍ أَوْ سِنَةٍ

لَابْنِ إِحْدَى وَثَمَانِينَ سَنَةً

قَلَّصَ الشَّيْبَ بِهَا ذَيْلَ إِمْرِي

طَالَمَا جَرَّ صَبَاهُ رَسَنَةً

تَارَةً تَخْطُوبُهُ سَيْئَةً

تُسَخِّنُ الْعَيْنَ أُخْرَى حَسَنَةً

مستفهماً بأسلوب الإنكار لمكابدته في عيشه
أو غذائه أو سنته باستعمال (أو) التي هي عند
النحاة (لأحدى الشئتين أو الأشياء)^(٤٢)، فهو
مشتت البال تائه لا يعرف ان يقف ازاء كل واحد
من هذه الاحوال وهو في سن ممتدة ناهزت الاحدى
وثمانين سنة من العمر والتي اطاحت بشبابه
وفرحة وجعلته يتعثّر في حياته مخطئاً مرة
ومصيباً مرّة أخرى.

على أنّ هذا السرّد في وصف مُعاناتِهِ، وشكواه
جاء بعاطفة حُزن شديدة تهيل وتميل في أجواء
موسيقى الجناس المتأتّي من المجانسات بين
الألفاظ (سِنَهُ، سَنَهُ، رَسَنَهُ، حَسَنَهُ) بقصد تكثيف
وابراز هذا الحُزن.

وهذا هو بيتُ أحزانه حين يشكو لمدوحه
بقوله^(٤٣):

(٤١) ديوانُ ابنِ خَفَاجَةَ، ق ٢٨٨.

(٤٢) هَمْعُ الْهَوَامِعِ فِي شَرْحِ جَمْعِ الْجَوَامِعِ فِي عِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ،
جلال الدين بن عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار
المعارف، بيروت، ج ٢ / ١٢٨.

(٤٣) ديوانُ ابنِ خَفَاجَةَ، ق ٢٢٦.

(طويل)

وَعُذْرًا إِلَى عَلِيَّكَ إِنِّي بِحَالَةٍ

تَعَقَّى بِهَا رَسْمَ الْقَرِيضِ وَلَا رَسْمُ

فَهَا أَنَا نَهَبٌ لِلشَّكَايَا كَأَنَّمَا

لِكُلِّ سِقَامٍ مِنْ قَوِي جَسَدِي قِسْمُ

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَرْءَ لِلْأَرْضِ أَكْلَةٌ

فِيَا عَجَبًا أَنْ تَأْكُلَ ابْنًا لَهَا أُمَّ

إِذَا اللَّهُ أَمْضَى الْحَكْمَ فِينَا لِحِكْمَةٍ

فَلَا حِجَّةٌ تُدَلِّي هُنَاكَ وَلَا خِصْمُ

وَإِنِّي وَقَدْ جَفْتُ دُمُوعِي مِنَ الضَّنَى

لِبَاكِ وَلَا دَمْعٌ وَشَاكِ وَلَا جِسْمُ

فقد اخذ منه المرض مأخذاً كبيراً إذ لا طاقة له
على قول القريض لأنه صار نهباً للشكايا بسبب
الأمراض التي أتت عليه حتى جعلته يظن أنه الموت
وهو حكم الله في الارض ولا راد له لذا فإنه تحوّل
إلى باكِ لا دمع له والى شاكِ ولا جسم له مؤكداً
ذلك باللجوء إلى التوكيد باستعمال (إِنَّ) واللام
المزحلقة في قوله (لِبَاكِ) فضلاً عن زيادة الصخب
الموسيقي من المطابقة السلبية بين لفظتي (رَسْمُ)
و(لا رَسْمُ) ومع الاخذ باللزوميات أحياناً لتعزيز
هذا الصخب الذي يتلاءم مع عاطفة الحُزن ومن
ذلك قوله معبراً عن حزنه بشكواه من السقم^(٤٤):

(كامل)

وَوَشَّى رِءَاءَ الْمَجْدِ بِاسْمِكَ خَاطِرُ

قَدْ عَاتَ فِيهِ السَّقْمُ وَهُوَ كَلِيلُ

فَسَجَعْتُ فِي قَيْدِ الشَّكَاةِ مُعْرَدًا

طَرِبًا وَلِلطَّرْفِ الرَّبِيضِ صَهِيلُ

(٤٤) ديوانُ ابنِ خَفَاجَةَ، ق ٢٢.

ولوى العنان عن الإطالة أنني

نضو يسرُّ به الفراش ضئيلُ

مادَّ النحولُ به فلاعبَ شخصه

ظلُّ تحيفه السقام نحيلُ

فبعثته جمَّ المحاسنِ ناقهاً

قد كاثَرَ الأمداحَ وهو قليلُ

فالشاعر يقصُّ على ممدوحه حكاية سقمه بالتفصيل فهو يعتذرُ لأنَّ خاطره الشعريُّ ينوء بالسقم إلا إنَّ إرادته تآبى ذلك فنراه يسجعُ بالرغم من الشكاية فرحاً متجاوزاً المرض من خلال بناء الجملة الشعرية على المفعول لأجله^(٤٥) ويستمر في الاعتذار والتشكي ليقول إنَّ الذي منعه من الإطالة هو هزاله وضعفه، ولكنه رغم ذلك يكون قد قدّم الشعر الحسن الذي يضاهاى المدائح الأخرى على قلته مستعملاً المطابقة^(٤٦) بين (كاثر) و(قليل) بقصد لفتِ النظر بالمفارقة التي أحدثتها المطابقة (التي يحصلُ تحسُّينُ الكلام بها)^(٤٧)، وبذلك يكون الشاعر قد قدّم عذره وبين سقمه وأعلن عن حزنه البالغ لما حصل له.

ثانياً- الفراق: إنَّ المتأمل في ديوان ابن خفاجة

يُجد كثيراً من الأشعار التي قالها في مجال الفراق، ولعل هذا المظهر يشكّل مساحة غير قليلة في ديوانه والفراق كما ورد في لسان العرب من (فارق الشيء مفارقة وفراقاً: باينه، والاسم الفُرقة وتفارق القوم: فارق بعضهم بعضاً)^(٤٨)، على ان هذا المظهر ينحو منحيين الأول هو ما جاء في باب فراق المحبوب وكلّه يرد ضمن غرض الغزل وأمّا الثاني فإنه يأتي في فراق الاخلاء والاحبة بالموت وجلّه يرد في سياق الرثاء، وهذان المنحيان لا يورثان الا الحُزن البالغ في نفس الشاعر، والشاعر إنسان له إحساسه تجاه المرأة لذا اطلق العنان للنسيب (لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء فليس يكاد يخلو أحد من أن يكون متعلقاً منه بسبب، وضارباً فيه بسهم حلال أو حرام)^(٤٩)، (فشكا شدة الشوق، وألم الوجد، والفراق)^(٥٠) فصار الشاعر بذكره لأحبابه ينشد الشعر لأنه عاشق^(٥١)، والشاعر الأندلسي شأنه شأن غيره من الشعراء يصف ذاته وبؤسه، وتصرّم ليالي اللهو، والهناء^(٥٢) لذا كان غزلهم ينساب على شفاههم لما في الأندلس من جمال طبيعة، وحياة مترفة، ورخاء ومجالس

(٤٨) لسان العرب، ابن منظور، م ج ٧، مادة فَرَقَ.

(٤٩) طبقات الشعراء، لابن قتيبة، ط ١، قسطنطينية، عالم الكتب، بيروت، ١٢٨٢هـ، ٧.

(٥٠) المصدّر نفسه / ٧.

(٥١) يُنظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيقي القيرواني، ج ١ / ٢٠٦.

(٥٢) يُنظر: فن الوصف وتطوره، في الشعر العربي، ايليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، بيروت، لبنان، ١٩٧٧م / ٢٣٥.

(٥٣) يُنظر: في الأدب الأندلسي، دكتور جودت الركابي / ١٢١.

(٤٥) المفعول لأجله: (هو ذكر الشيء وضده جميعاً). كشف المشكل في النحو، لعلي بن سليمان الحيدرة اليميني (ت ٥٩٩هـ)، تحقيق الدكتور هادي عطية مطر الهلالي، مطبعة الارشاد، بغداد ١٩٨٤ م، مج ٢ / ٤٤٧.

(٤٦) هي: (ضرب من ضروب البديع) شرح التلخيص، اكمل الدين محمد بن محمد بن أحمد البابرّي، دراسة وتحقيق الدكتور محمد مُصطفى رمضان صوفية، ط ١، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلام، طرابلس، ١٩٨٣ م / ٦١٣.

(٤٧) المصدّر نفسه، / ٦١٣.

أنس وغناء^(٥٣).

وابن خَفَاجَةَ صاحب الغزل الرقيق^(٥٤) له في فراق ومباعدة المحبوب ما له من الشَّعر الذي أورثه ما أورثه من الحُزْن والألم منها ما هو من طريق رسوله يخاطب عُفراء بقوله^(٥٥):

(طويل)

وأقرئ عُفراء السلام وقل لها

ألا هل أرى ذاك السَّهى قمرًا تمًا

وهل ينثنى ذلك الغصنُ نظرًا

بجرعي وهل ألوي معاطفه ضمًا

ودون الصَّبى إحدى وخمسون حجةً

كأنى وقد ولت رأيتُ بها حلما

فيا ليت طير السعدَ يسنحُ بالمنى

فأحظى بها سهمًا وأبأى بها قسما

ويا ليتني كنتُ بنِ عَشْرِ واربع

فلم ادعها بنتًا ولم تدعني عمًا

ليبين مدى حزنه وألمه لبعده عنها زمنًا ومكانًا،

فهي بعيدة زمنًا لأنها أصغر منه سنًا لذا نراه

يصغر الاسم (عُفراء)، والتصغير عند النحاة يُفاد

(٥٤) يُنظر: جواهر الأدب في ادبيات وانشاء لغة العرب،

تأليف السيد أحمد الهاشمي، طبعة جديدة محققة،

ومنقحة، اشرف على تحقيقه وتصحيحه، لجنة من

الجامعيين، مؤسسة المعارف، بيروت، ج٢ / ٢٠٠.

(٥٥) ديوانُ ابنِ خَفَاجَةَ، ق ٤٠.

(٥٦) شرح ابن عقيل قاضي القضاة، بهاء الدين عبدالله

بن عقيل العقيلي، المصري الهمداني، المتوفى في سنة ٧٦٩

من الهجرة، على الفية ابن مالك المتوفى في سنة ٦٧٢ من

الهجرة ومعه كتاب منحة الجليل، بتحقيق وشرح ابن

عقيل، تأليف محمد محيي الدين عبدالحميد، الطبعة

السادسة عشرة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،

بيروت، القاهرة، ١٩٧٤م، مج٢، ج٤ / ١٣٩.

منه (تصغير ما يُتوهم كبره)^(٥٦)، وهو بعيد عنها

زمنًا لأنه أدرك من العمر إحدى وخمسين حجةً

وصار يتمنى لو كان ابن عشرٍ وأربعٍ وأنَّى له ذلك.

لقد افقدت الشقة الزمنية البعيدة ابن خَفَاجَةَ

محبوبته فأصبح هائمًا يُنبه لكي يُسمع الارجاج

ب (ألا)^(٥٧) مستفيدًا من التساؤل المكرر ب (هل)

ثلاث مرات عسى ان ينال مبتغاه ولكنه لم يجن

الا السراب على حين يواصل رغبته في الوصول إلى

هذه المحبوبة ولو بالتمنى إذ نجده يلجأ إلى اللغة

مكرراً (ليت) مرتين عسى ان يحظى بها، على ان

هذه التساؤلات والتمنيات لم تجد نفعاً، فخاب

أمله وشردته الأفكار والظنون حتى عاد حزيناً

منكسراً.

ومثل ذلك في فراق المحبوب والحُزْن عليه قوله^(٥٨):

(طويل)

اما وجمان من حديثِ علاقةٍ

يَهزُّ اليه الشيخُ عطفَ غلامٍ

تحلَّت به ما بين سلمى ومَنبجٍ

سَوالفُ أيامِ سلفنِ كرامٍ

لقد هزني في رِيطةِ الشيبِ هزةٌ

أرتني ورائي في الشبابِ أمامي

ولولا دفاعُ الله عَجَّتْ مع الهوى

وَجَلَّتْ بواديه أجْرُ خطامي

وربَّ ليالٍ بالغميمِ أرقَتْها

لمرضى جُفونٍ بالفراتِ نيامٍ

(٥٧) هي: (حرف استفتاح وتنبيه)، همع الهوامع،

السيوطي، ج٢ / ٧٠.

(٥٨) ديوانُ ابنِ خَفَاجَةَ، ق ٧.

.....

و لم أدِر ما أشجى وأدعى إلى الهوى

أخفقتُ برقِ أم غناء حَمَام

إذ هو غارق في حزن كأنه قطع الليل المظلم
تستعر في أعماقه نيران الماضي الجميل الذي فقدته
فيبشر الحديث بقوله (أما) وهي حرف يفيد
الاستفتاح والتنبه^(٥٩)، وكأنه يريد ان يملأ اسماع
الدينيا بما سيقوله معقباً على ذلك بالقسم حين
يقول (وجمان) ليؤكد به ما ينوي قوله لأن القَسَمَ
يُراد منه تأكيد شيء يُخبر عنه^(٦٠).

لقد بدأ ابنُ خَفَاجَةَ بالحديث عن أيام هناة
ولهوه مع من يحب عبر أيام قضين جميلات كرام
إذ هزه هذا الحديث عن الماضي هزة أعادت ماضيه
المنصرم إلى حاضر ومستقبل زاهر ولكنه يخشى
الله ويتواصل مع الذكريات معبراً عن حالة من
الحُزْن والانكسار النفسي مستعيناً بـ (رُبِّ)
بقصد التهويل والاكثار لأنها عند النحاة (من
وسائل التكثر)^(٦١) فهو يقول متحسراً حزيناً كم
من الليالي الملاح أنفقتُها على من أهوى من مراض
الجفون بالفرات وكأنه يشير إلى البعد الزمني
والمكاني من خلال ذكره لفضة (الفرات) وهو
في الأندلس لتنتفتح عليه عوالم الليل الذي يطوف

(٥٩) يُنظَر: همع الهوامع، السيوطي، ج٢/ ٧٠.

(٦٠) يُنظَر: المخصص، تأليف أبي الحسن علي بن
اسماعيل، النحوي، اللغوي، الأندلسي، المعروف بابن
سيده، المكتبة التجارية للطباعة والنشر، بيروت، مج٤،
السفر ٦٣ / ١١٠.

(٦١) مغني اللبيب، ابن هشام، ج ١ / ١٣٤.

عليه فيستذكر الماضي مخاطباً (أم مالك) للتدليل
على (الحنين والشوق)^(٦٢)، من باب الرمزية التي
تؤثر في شباب اللغة وفي جمالية الأسلوب^(٦٣).

لقد أمسى الشاعر هائماً حائراً تشرده الأفكار
وتأخذه بحار الحُزْن فلم يعد يعرف ما الذي
يشجيه ويدعوه إلى الهوى أهو البرق ؟ أم
الحمام^(٦٤)، وكلاهما له دلالتة الرمزية في مجال
الحُزْن والشوق اما فراق الاحبة بالموت فنجد
له من الامثلة ما هو غير قليل في شعر الرجل،
وأهل الأندلس كانوا على شاكلة المشاركة من
حيث التفجع على المتوفى وتعداد مناقبه^(٦٥)،
والنقاد يرون أن (سبيل الرثاء أن يكون ظاهر
التفجع، بين الحسرة، مخلوطاً بالتلهف، والاسف،
والاستعظام)^(٦٦)، ويكون على وفق نظرة الدكتور
احمد الشايب متميزاً باللين والرقّة^(٦٧) لاسيما أنه
(فن الموت ولغة الحُزْن ومجال اليأس، ومعرض

(٦٢) المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها، عبدالله
الطيب المجذوب، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٠م ج٣
١٣/.

(٦٣) يُنظَر: الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، د. محمد
فتوح أحمد، مطبعة اطلس، القاهرة، ١٩٧٧م / ٢٤.

(٦٤) جاء في الموازنة بين بين أبي تمام والبحري، لأبي
القاسم الحسن بن بشر الأمدي، تحقيق، أحمد صقر،
الطبعة الرابعة، مطابع دار المعارف، القاهرة / ١٤٦. ان
تغريد الحَمَام (يبلي ويميت).

(٦٥) يُنظَر: في الأدب الأندلسي، د. جودت الركابي / ١١٤.

(٦٦) العُمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، أبو علي
الحسن بن رشيق، ج٢ / ١٤٧.

(٦٧) يُنظَر: الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول
الأساليب الأدبية أحمد الشايب، ط٣، ملتزم الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٢م / ٧٧.

الوفاء والحُزن^(٦٨).

والموت سنّة جارية في الارض وقانون ربّاني
خَصَّ به الكائنات ومنها الإنسان لقوله تعالى:
(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)^(٦٩) فلا مناص منه، ولا محيد
عنه لقوله تعالى: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)^(٧٠).

اما ابن خَفَاجَةَ فله في هذا المجال طول باع،
وسعة قدرة ومن شعره في الفراق ما مثله رثاؤه
الذي عُرف عنه فيه البلاغة^(٧١)، ولعل اول انموذج
شعريّ في باب الرثاء ما يكون في رثاء نفسه هو
من مثل قوله والحُزن يملأ قلبه^(٧٢):

(طويل)

خَلِيلِيْ هَلْ مِنْ وَفِيَّةٍ لِتَأْلَمِ
عَلَى جَدثِيْ أَوْ نَظْرَةٍ لِتَرْحُمِ
خَلِيلِيْ هَلْ بَعْدَ الرَدَى مِنْ ثَنِيَّةٍ
وَهَلْ بَعْدَ بَطْنِ الْاَرْضِ دَارُ مَحِيْمٍ
وَ اَنَا حَيِيْنَا أَوْ رُدَيْنَا لِأَخْوَةٍ
فَمَنْ مَرَّ بِي مِنْ مُسْلِمٍ فَلْيُسَلِّمْ

.....

يردّد طوراً أهة الحُزن عندها

ويذرّف طوراً دمعاً المترحّم

نراه مستسلماً لقضاء الله مرتدياً ثوب الحُزن
لإحساسه بفراق الحياة الدنيا، فهو ضعيف منكسر
يعرض على من يمر عند قبره ان يحزن عليه باكياً

(٦٨) الأسلوب دراسة بلاغية، أحمد الشايب / ٧٧.

(٦٩) القرآن الكريم، الرحمن / ٧٦.

(٧٠) المصدر نفسه، آل عمران / ١٨٥.

(٧١) يُنظَر: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب،
أحمد الهاشمي، ج ٢ / ٢٠٠.

(٧٢) ديوان ابن خَفَاجَةَ، ق ٣٠٠.

متألماً، ويتساءل وهو في غمرة هذا الحُزن طالباً
الشفقة عليه إذ هو يكرر لفظة (خَلِيلِيْ) في سياق
عرضه لحالته النفسية المنكسرة والتكرير يُقصد
منه التأكيد^(٧٣) الذي يشفّعه بصيحات النداء
في قوله (خَلِيلِيْ) وكأنه يريد ان يُسمع الدنيا،
ويلفت نظر الانام إلى ما هو فيه علّهم يسعفونه
إذ ان النداء تنبيه للمنادى وحمل له على الالتفات
والاستجابة له^(٧٤).

وبعد ان يلفت الشاعر نظر الناس اليه يحاورهم
ويستعطفهم لأنهم اخوة له في الحياة والموت وذلك
امر اكيد لأنه اعتمد التوكيد في قوله (وانّا) ثم في
قوله (لأخوة) وفيها اللام المزلقة التي تفيد هي
الأخرى حالة من حالات التوكيد^(٧٥) فهو يّح على
كل من مرّ به من المسلمين ان يُسلّم عليه وكأنه
لا يريد ان ينزع ثوب العيش ويلبس ثوب الردى،
وهو لم يكتفِ بذلك بل يطلب من هؤلاء الأخوة أن
يُرددوا آهات الحُزن ويذرفوا الدموع الغزار حزناً
وأسفاً عليه.

وابن خَفَاجَةَ في هذه المقطوعة يعكس لقارئة
طبيعة الانكسار النفسي، وشدة الحُزن اللذين
اعتوراه وهو الشاعر المقتدر المعروف بمدحه
البارع، وراثته البليغ^(٧٦)، واذا كان ابن خَفَاجَةَ قد

(٧٣) يُنظَر: التكرير، عز الدين عليّ السيد / ٧.

(٧٤) يُنظَر: في النحو العربيّ قواعد وتطبيق على
المنهج الحديث، تأليف الدكتور مهدي المخزومي، ط ١،
شركة مكتبة ومطبعة مُصطَفَى الباجي الحلبي واولاده،
١٩٦٦م / ٢١٧.

(٧٥) يُنظَر حول هذا الموضوع: مغني اللبيب، لابن هشام
الانصاري، ج ١ / ٢٣٠.

(٧٦) يُنظَر: جواهر الأدب، السيد أحمد الهاشمي، ج ٢ /
٢٠٠.

تحدّث عن الفراق في رثائه لنفسه فأنه في هذه المرّة يتحدث عن الأصدقاء والصحاب مبيّناً الحُزن على فراقهم وهم اموات^(٧٧):

(كامل)

رَفَعْتَ عَلَيْكَ عَوِيلَهَا الْأَمْجَادُ

وَجَفَّتْ كَرِيمَ جَنَابِكَ الْعُودُ

و تَكشَّفَتْ مَثْوَاكَ عَنْ خُطْبِ دَهَى

هَدَّتْ لَهُ أَرْكَانَهَا الْأَطْوَادُ

سَلَبَتْ عَتَادَ الصَّبْرِ مِنْهُ صَبَابَةٌ

مَالِي بِهَا غَيْرَ الدَّمُوعِ عَتَادُ

لِلَّهِ أَيُّ خَلِيلٍ صَدَقٍ مُخْلِصٍ

أَهْوَى بِهِ رُكْنَ وَمَالَ عِمَادُ

فالشاعر يفتتح قصيدته بمطلع مناسب لها

فهو الطريق الذي يسلكه في عالم الرثاء الذي يصطبغ بصبغة الحُزن والأسى ولعل هذا هو الملائم، إذ ان النقّاد يذهبون إلى (أَنْ يَكُونَ المَفْتَحَ مناسباً لمقصد المتكلم)^(٧٨) لأن هذه المطالع هي دلائل البيان.

ان ابن خَفَاجَةَ يبدأ قصيدته الرثائية بالطاقة

القصوى من زفرات الألم والحُزن التي نفتها فخرق قانون الحياة حين شخّص وأنسن (الأمجاد) للمبالغة في التعبير عن الأسى وليقّص لنا تلك الحكاية الملتهبة بين حناياه حيث تقطّعت الصلات، وكشّرت الخطوب عن أنيابها وانهدت أركان الأطواد وسلب الصبر فلم يعد يملك إلا الدموع الغزار لينهض متعجباً من رحيل هذا

(٧٧) ديوان ابن خَفَاجَةَ، ق ١٧٥.

(٧٨) منهاج البلغاء، حازم القرطاجني / ٣١٠.

الصديق المخلص حين قال (لله أي خليل صدق) من طريق المدح لأن التعجب (معناه..... للمتعجب منه)^(٧٩) وبذلك يكون الشاعر قد أطلق فيضاً من الألم وشحنات من الحُزن البالغ في إحساسه بسطوة الفراق.

ثالثاً- الجور: شكّل موضوع الجور في شعر ابن خَفَاجَةَ مساحةً قليلةً ومنها جور العمّال وجور الزمن، وهو (نقيض العدل، جار يجور جوراً، وقومٌ جورٌ وجارةٌ أي ظلم)^(٨٠) والظلم سوء، قال تعالى: (من عمّل صالحاً فلنفسه ومن اساء فعليها وما ربك بظلامٍ للعبيد)^(٨١)، وليس لأحد ان يفلت من عين الرقابة الالهية، فلا بد للظالم من ان يُرصد والله سبحانه وتعالى يشير إلى ذلك بقوله: (ولا تحسبنّ الله غافلاً عمّا يعمل الظالمون)^(٨٢)، والظلم عاقبته خطيرة وقد قيل: (الظلم مرتعٌ وخيم)^(٨٣) ومن الجور قول ابن خَفَاجَةَ في شكاية من الظلم^(٨٤):

(طويل)

أَوْجُهْكَ بِسَّامٍ وَطَرْفُكَ بَاكِ

وَعَدْلُكَ مَوْجُودٌ وَمِثْلِي شَاكِ

و تَأْبَى اهْتِضَامِي فِي جَنَابِكَ هَمَّةٌ

تَهْزُكَ هَزَّ الرِّيحِ فَرَعٌ أَرَاكِ

(٧٩) كشف المشكل في النحو، لعلي بن سليمان الحيدرة، م ج ١ / ٥٠٧.

(٨٠) لسان العرب، ابن منظور، م ج ٢، مادة جور.

(٨١) القرآن الكريم، فصّلت / ٤٦.

(٨٢) المصدّر نفسه، ابراهيم / ٤٢.

(٨٣) العقد الفريد، ابن عبد ربه، ج ٣ / ٦٨.

(٨٤) ديوان ابن خَفَاجَةَ، ق ١٢٨.

و قد نال مني ظالمٌ لي ذاعِرٌ

فيا هبةً السيف الحسام دراكٍ

فهو يشعر بالحُزن فيشكو الظالم للأمرير معلناً صيحة الحق بلسان صدقٍ في مفارقةٍ استفهامية تجسّد الثقة بعدالة الامرير، واقد اعتمد الشاعر ما يُعرف بالطباق لتجميل كلامه لأن الطباق (يُحصل به تحسين الكلام)^(٨٥) الذي يليق بمثل هذا الامرير ان طابق بين لفظتي (بسّام، وبك) في محاولة منه للحصول على موافقة الامرير المبتسم، العادل الذي لا يُظلم عنده احد لثبوت صفات العدالة والبشاشة والقدرة المطلقة التي اكّدها باعتماده الاسمية في بناء جملة الشعرية لتأكيد استمرارية هذه الصفات لأن الاسمية تدل على الثبوت والشمول والعموم^(٨٦) بقصد كسب رضاه والحصول على رفع مظلمته التي سقته كأس الحُزن. ومنه ايضاً ما قاله مستنجزاً ميعاداً^(٨٧):

(طويل)

وهل تنهضُ الاقدارُ يوماً بحاجتي

ورأيّ لابراهيم فيّ جميلٌ

وكيف واني ما طلّ الدهرُ بالمني

وسوفني ليانُ منه مطوولٌ

وعنديّ منها للأمرير مواعيدٌ

يُبلُّ بها تحت الهجيرِ غليلٌ

(٨٥) شرح التلخيص، اكمل الدين بن محمد البابرّي /

٦١٣.

(٨٦) يُنظر: معاني الابنية في العربيّة، د. فاضل صالح السامرائي، ط ١، ساعدت جامعة بغداد على نشره، بغداد، ١٩٨١م / ٩.

(٨٧) ديوانُ ابنِ خَفَاجَةَ، ق ٢٣٣.

.....

.....

فيا ايُّها الملكُ الأغرُّ وِلايَةً

وخصلاً وأصلاً والجليلُ جليلٌ

أمثلكُ موجودٌ بحمصٍ مؤمراً

عزيزاً ومثلي بالعراقِ ذليلٌ

فهو حائر مهموم يطلب استنجاز ما يريد مستفهماً ب (هل) وهي (الاصل في الاستفهام)^(٨٨) عن مبتغاه لاسيما وللأمرير رأي جميلٌ فيه ويكرر الاستفهام ب (كيف) ليؤكّد حقّه الذي صبغته وعود التسوييف وعادت عليه حُزناً ووبالاً مُبدياً تعجبه للمطل وللأمرير رأي جميل فيه ومواعيد كثيرة والامرير عزيز جليل ليكون ذلك التعجّب وسيلة من وسائل استدرار عطفه لاسيما وأنه اقام بناء النص على المفارقات التي كان لها الاثر في نفس الامرير، وشدّ التراكيب في النص الشعريّ ليزداد الشاعر قرباً منه لذا فإنه يناديه بالمطلق قرباً وبعداً لأن حرف النداء (يا) يستعمل لنداء البعيد والقريب^(٨٩). ان هذه الصرخات التي اطلقها الشاعر ممثلةً بالتساؤلات والنداءات والمفارقات لم تأت من فراغ وانما جاءت من إحساس بالألم والبؤس اللذين قاداه إلى حزن يمور في صدره باعتباره نتاجاً لإحساس الشاعر بالجور.

وقد يصرخ الشاعر من جور الزمان حين يقول^(٩٠):

(٨٨) في النحو العربيّ، د. مهدي المخزومي / ٣٩.

(٨٩) يُنظر: في النحو العربيّ، د. مهدي المخزومي / ٢١٧.

(٩٠) ديوانُ ابنِ خَفَاجَةَ، ق ٢٩١.

(كامل)

ما للزمان يجورُ في أبنائه

حُكماً ويرمُقهم بعين العائبِ

فيحطُّ علوهم ويرفعُ سفلهم

فكأنهم قلمٌ بيمنى كاتبِ

فهو يقدّم مظلّمته من الزمان إلى من حوله
بأسلوب اقرب إلى التقريرية لكي يتمكن من
ايصال ما يريد إلى السواد الأعظم من الناس
بأسلوب استفهامي وُلد من رحم الشّعْر إذ يعدُّ
من ميزات اللغة الشّعريّة كونه اقرب إلى جوهره
من الجمل الخبرية^(٩١)، وابن خَفَاجَةَ يُنكر على
الزمان هذا الجور وتلك النظرة المعيبة لأبنائه حين
اصبح يحطُّ الاعلى، ويرفع الادنى، حتى لكأنهم
قلمٌ يتصرّف به الكاتب كيفما أراد.

رابعاً- الاغتراب: من مظاهر الحُزْن في شِعْر ابن
خَفَاجَةَ ما تلمسناه من دلائل الاغتراب وقد جاء في
لسان العرب (الغربة والغرب النزوح عن الوطن
والاغتراب.... والاغتراب والتغرّب كذلك..... ورجل
عُرِب بضم الغين والراء وغريبٌ بعيدٌ عن وطنه^(٩٢)).

والاغتراب يستدعي الحنين والعرب أشارت إلى
الغربة بما نقل عنها ان إياس بن معاوية مرَّ
(بمكان فقال اسمع صوت كلب غريب، فقيل

له بِمَ عرفت ذلك؟ قال بخضوع صوته، وشدّة
نباح غيره)^(٩٣) والاغتراب في شِعْر ابن خَفَاجَةَ يردُّ

(٩١) يُنظر: التوجيه الأدبي، طه حسين، أحمد امين،
عبدالوهاب عزّام، محمد عوض، ١٣٨.

(٩٢) لسان العرب، ابن منظور، م ج ٦، مادة عُرِبَ.

(٩٣) المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين محمد
بن أحمد أبي الفتح الابشيهي، شرحه وضبطه هوامشه،
د.مفيد محمد قميحة، ط ١، مؤسسة الكتب الثقافية،
بيروت، لبنان، ٢٠٠٨ / ٣٠٩.

أحياناً بشكل نصوص مستقلة ويردُّ في أحيان
أخرى ضمن سياق القصائد. على أن للاغتراب
دواعي عدّة لامستها قريحة الشاعر فكان منها
الحنين إلى الوطن الذي يرتبط ارتباطاً مباشراً
بالاغتراب والحُزْن. إنَّ مثل هذا الشعور كانت
تنتابه حالة من الغربة الشديدة^(٩٤) على أن حنين
أهل الأندلس كان صادقاً مميزاً^(٩٥)، ولعل جمالها
وحب الأندلسيين للوطن وارتباطهم به^(٩٦) كان
هو السبب في هذا النوع من الحنين (فكان اول
من عصفت به رياح الغربة والحنين من شعراء
الأندلس الامير عبدالرحمن الداخل)^(٩٧) هذا هو
الشاعر يتشوّق إلى معاهده بجزيرة شقر^(٩٨):

(خفيف)

بين شُقرٍ ومُلتقى نهرِها

حيث ألقَتْ بنا الأمانى عَاصها

و يُغني المِكَّاءُ في شاطئِها

يستخفُّ النهى فحلَّت حُبَّها

عيشةً أقبِلت يُشهى جَنَّاها

وارفٌ ظلُّها لَذيذٌ كَراها

(٩٤) يُنظر: المكان في الشعر الأندلسي، من الفتح حتى
سقوط الخلافة، د. محمد عبيد صالح السبهاني، ط ١، دار
الافاق العربيّة، القاهرة، ٢٠٠٧ م / ١٣٧.

(٩٥) يُنظر: دراسات اندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة،
د. الطاهر أحمد مكي، ط ١، دار المعارف، القاهرة،
١٩٨٠ م / ٢٣٢.

(٩٦) يُنظر: المصدّر نفسه / ٢٣٧.

(٩٧) المكان في الشعر الأندلسي، د. محمد عبيد صالح /
١٣٩.

(٩٨) ديوان ابن خَفَاجَةَ، ق ٣٠٣.

فَأَنْدُبُ الْمَرْجَ فَالْكُنَيْسَةَ فَالْشَطَّ

وَقَلْ أَيْ يَا مُعَيْدَ هَوَاهَا

أَيْ مِنْ فُرْقَةٍ لِعَيْرِ تَلَاقٍ

أَيْ مِنْ دَارٍ لَا يُجِيبُ صَدَاهَا

فالشاعر هنا يُناجي مدينته شُقر متشوقاً إليها ومبدياً شدة الحُزن والغربة، والألم ضمن سياق موضوع الوصف الطبيعي والوصف الحضري، فنراه يبدأ بالوصف الطبيعي الذي لا علاقة للإنسان بصنعه فشُقر وملتقى نهرها، وغناء المُكاء، عند شاطئها هي التي شغلته ومَلكت عليه قلبه، فجعل يستذكرها ويحُنُّ إليها، ويشعر بالغربة وهو بعيد عنها. على انه يتواصل مع الوصف

الصناعي فيستذكر المرج فالكنيسة ويصرخ مستعيناً بفعل الأمر (اندب)، الذي يلزم الائتمار^(٩٩) مكرراً لفظة (أه) ثلاث مرّات لتأكيد هذا التفجّع، والإحساس بالاغتراب عنها والحنين إليها لفرقة لا تلاقى بعدها.

وقد يكون الحنين إلى الصبى سمة دالة على إحساس الشاعر بالاغتراب الذي يؤسس حالة من الحُزن والبؤس كما في قوله^(١٠٠):

(طويل)

أَلَا رَبُّ يَوْمٍ لِي بَبَابِ الزَّخَارِفِ

رَقِيقِ حَوَاشِي الْحُسْنِ حَلْوِ الْمَرَاشِفِ

لَهْوَتُ بِهِ وَالدهرُ وَسَنَانُ ذَاهِلُ

وَعُصْنُ الصَّبَا رِيَّانُ لَدُنْ الْمَعَاطِفِ

(٩٩) يُنظَر: كشف المشكل، عليّ بن سليمان الحيدرة، م ج ٢ / ١٤١.

(١٠٠) ديوانُ ابنِ خَفَاجَةَ، ق ١٥٦.

أُعَاطِي تَحَايَا الْكَأْسِ وَالْأَسِ فَتِيَّةً

تَخَايَلُ سَوْدَ الْعَذْرِ بِيضَ السَّوَالِفِ

زَمَانٌ تَوَلَّى بَيْنَ كَأْسٍ تَلِيدَةٍ

تُدَارُ وَعَيْشٌ لِلْحَدَاثَةِ طَارِفِ

وَسَمْسٌ لِلْإِلَاءِ الزَّجَاجَةِ طَلْقَةٍ

وَضَلُّ لَرِيْعَانِ الشَّبِيْبَةِ وَارِفِ

فالشاعر يذهب إلى تشبيه السامع بـ (ال) ^(١٠١) لكي يجلب الانتباه إلى ما سينفث من صدره من الزفريات، فهو عندما يغادر زمن الصبى وما فيه من مغريات الحياة إلى زمن الشيخوخة يراوده إحساس بالغربة إزاء حياته الجديدة بآثا به الحنين إلى تلك الأيام السالفة أيام الشباب التي يُبعث فيها الانبياء ويؤتى فيها العلماء والعلم ^(١٠٢)، فالشباب (باكورة الحياة وأطيب العيش وأائله.... والشباب ابلغ الشفعاء عند النساء وأكثر الوسائل لقلوبهن ^(١٠٣).

لذا نراه لا يفتّر عن الإحساس بالغربة ضمن عالم الشيخوخة الجديد حتى يأخذه الحنين إلى استذكار صباه وبكائه (وما بكت العرب على شيء ما بكت على الشباب ولو لم يكن هذا الشباب حميداً وزمانه حبيباً لوسامة صورته وبهجة منظره) ^(١٠٤)، فكيف لابن خَفَاجَةَ ان ينسى ذكريات

(١٠١) جاء في مغني اللبيب لابن هشام الانصاري، ج ١ /

٦٨: (ألا) (أداة تبيه واستفتاح).

(١٠٢) يُنظَر: المستطرف في كل فن مستظرف، الابشيهي /

٢٩٣.

(١٠٣) المصدّر نفسه / ٣٩٣.

(١٠٤) المصدّر نفسه / ٢٩٣.

صباه وهو الذي اخذت بمجامع قلبه تلك الايام
برقّة حواشي حُسْنها، ولين الصبى، وتعاطي
اقداح الخمرة المعتّقة والعيش الرغيد. وكل ذلك
لا بد له من أن يَكُونَ سبباً كافياً لأن يثيرَ في نفسه
هواجس الغربة التي تقوده إلى بحرٍ من الأحزان.
و يكون الحنين إلى الأصدقاء دالة على اغتراب
الشاعر وإحساسه بالحزن في مثل
قوله^(١٠٥):

(طويل)

وعسى الليالي أن تَمُنَّ بِنَظْمِنَا

عَقْدًا كَمَا كُنَّا عَلَيْهِ وَأَفْضَلَا

فَلرُبَمَا نُنْثِرُ الْجُمَانُ تَعَمُّدًا

لِيُعَادَ أَحْسَنُ فِي النِّظَامِ وَأَجْمَلَا

فهو يعيش في عالم الغربة بعد فقد اصدقائه
ولم يعد اليوم مثل الامس وشتان بين هذا وذاك
لذا فاضت روحه حنيناً إلى ذكريات الماضي الجميل
وها هو ينوء بأثقال الحنين إلى أصدقاء الامس
فتثور مواجده ليذهب إلى الرجاء ويتوسل بالليالي
ان تعيد لعبة القدر كي ينتظموا عصابة للسعادة،
والهناء مشدودة كالعقد لا بل افضل منه لذا نراه
يستعمل لفظة (عسى) في سياق جملته الشعريّة
إذ هي تعني (الترجي في المحبوب، والاشفاق في
المكروه)^(١٠٦) ولعل الشاعر يريد ان يقنع نفسه بما
تخيله من العودة إلى الماضي الجميل فلجأ إلى ما

(١٠٥) ديوانُ ابنِ خَفَاجَةَ، ق ٢٩٥.

(١٠٦) مغني اللبيب، ابن هشام الانصاري، ج١ / ١٥١.

يُعرف بحُسن التعليل^(١٠٧) لكي يصدّق ما ترجّاه
من الليالي التي ستتظمه والأصدقاء عقداً جميلاً
مؤكداً ذلك بتكثيره ليثبت حقيقة حصوله حين
عمد إلى استعمال حرف الجر شبيهه بالزائد (رَبِّ)،
الذي يرد عند النحاة (للتكثير كثيراً)^(١٠٨) فالشاعر
بهذا الترجّي والاشفاق، والتكثير يُعبّر عن حنين
بالخ، وغرقٍ في لُججٍ من الأحزان التي تلازمه طوال
حياته الباقية.

خاتمة البحث

وبعد هذه الرحلة القصيرة من المتابعة للحزن
ومظاهره في شعر ابن خَفَاجَةَ الأندلسي توصل
البحث إلى النتائج الآتية:

- ١ - ان الشاعر لم يعش طول حياته في لهو،
وفرح، وعبث، بل عاش النصف الآخر من حياته
وهو يعاني الحزن والأسى.
- ٢ - إن من مظاهر حزنه التي أثقلت كاهله في
الشيخوخة والمرض اللذين عانى منهما كثيراً،
وأدّيا به إلى الانكسار النفسي.
- ٣ - كان لإحساس ابن خَفَاجَةَ بالجور دور واضح
في طبيعة حياته فهناك جور العمّال وهناك جور
الزمان.

(١٠٧) يُنظَر حول هذا الموضوع: الايضاح في علوم البلاغة
قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبدالرحمن، المعروف
بابن الخطيب القزويني ٦٦٦ - ٧٣٩ هـ، تحقيق لجنة
من اساتذة كلية اللغة العربيّة بالجامع الازهر اختارها
واشرف عليها شيخ الكلية، اعادت طبعه بالاوفست مكتبة
الثنى، بغداد لصاحبها قاسم محمد الرجب، مطبعة السنّة
المحمديّة، القاهرة، ج٢ / ٣٦٧.

(١٠٨) مغني اللبيب، ابن هشام الانصاري، ج١ / ١٥١.

٤ - الاغتراب يمثل مظهراً من مظاهر حزنه لفقدته معاهد الصبى والوطن والأصدقاء والأحباب، وكل هذه الأمور أشعلت في نفسه الحنين إلى ماضيه الجميل ومكنت الإحساس بالغربة في قلبه.

٥ - كما كان شعوره بفراق صاحبه من الأصدقاء أو الأحباب الذين يغادرونه يفتح عليه باباً واسعاً من ابواب الحزن واليأس طول فترة حياته الباقية.

٦ - شعره في الحزن جاء في نصوص مستقلة كما انه جاء في أحيان أخرى مبنوثة ضمن سياق قصائد ذوات اغراض أخرى.

٧ - يعتمد ابن خفاجة في جانب من شعره في الحزن الأساليب البيانية التي تقود النص التي التعمق وفي أحيان أخرى نجده يعتمد البساطة والوضوح.

مصادر البحث ومراجعته

- القرن الكريم.

- ابن خفاجة الأندلسي، عبدالرحمن جبير، ط ١، دار الافاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠م.

- الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الادبية احمد الشايب، ط ٢، ملتزم الطبع والنشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٢م.

- الاشارات والتنبيهات في علم البلاغة، تصنيف محمد بن علي بن محمد الجرجاني، تحقيق، الدكتور عبدالقادر حسين دار نهضة مصر، القاهرة.

- الايضاح في علوم البلاغة، قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبدالرحمن المعروف بابن الخطيب القزويني، ٦٦٦ - ٧٣٩ هـ تحقيق لجنة من اساتذة كلية اللغة العربيّة بالجامع الازهر اختارها واشرف عليها شيخ

الكلية، اعادت طبعه بالوفست مكتبة المثنى ببغداد، لصاحبها قاسم محمد الرجب، مطبعة السنّة المحمديّة، القاهرة، ج ٢.

- بغية الملتمس في تاريخ رجال اهل الأندلس، الطيبي احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة المتوفى في سنة ٥٩٩ هـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

- تاريخ الأندلس عصر الطوائف والمرابطين، د. احسان عباس، ط ٣، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٨١م.

- التكرير بين المثير والتأثير، د. عزالدين علي السيّد، ط ٢، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦م.

- التكملة لكتاب الصلّة، أبو عبدالله محمد بن عبدالله المعروف بابن الابار، تحقيق عزت العطار الحسيني، مطبعة الحسين، القاهرة، ١٩٥٥م، ج ١.

- التوجيه الادبي، طه حسين، أحمد امين، عبدالوهاب عزّام، محمد عوض.

- جواهر الادب في ادبيات وانشاء لغة العرب، تأليف السيد احمد الهاشمي، طبعة جديدة محققة ومنقحة، اشرف على تحقيقه، وتصحيحه لجنة من الجامعيين، مؤسسة المعارف، بيروت، ج ٢.

- الحياة العلمية في مدينة بلنسية، كريم عجيل حسين، ط ١، ساعدت جامعة بغداد على نشره، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٦م.

- دراسات أندلسية في الادب والتاريخ والفلسفة، الدكتور الطاهر احمد مكي، ط ١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م.

- ديوان ابن خفاجة تحقيق سيّد غازي، ط ٢، منشآت المعارف، الاسكندرية، ١٩٧٩م.

- الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة، تأليف ابي الحسن علي بن بسام الشنتريني المتوفى سنة ٥٤٢ هـ، تحقيق سالم مصطفى البدري، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت،

- لبنان، ١٩٩٨م، ج٣.
- الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، الدكتور محمد فتوح احمد، مطبعة اطلس، القاهرة، ١٩٧٧ م.
- شرح ابن عقيل قاضي القضاة بهاء الدين عبدالله، ابن عقيل المصري، الهمداني، المتوفى في سنة ٧٦٩ من الهجرة على الفية ابن مالك الامام الحجة الثبت ابي عبدالله محمد جمال الدين بن مالك المتوفى في سنة ٦٧٢ من الهجرة ومعه كتاب منحة الجليل، بتحقيق، وشرح، ابن عقيل، تأليف محمد محيي الدين عبدالحميد، ط٦ عشرة، دار الفكر للطباعة، والنشر والتوزيع، بيروت، القاهرة، ١٩٧٤م، مج٢، ج٤.
- شرح التلخيص، اكمل الدين محمد بن محمد بن احمد البابرستي، دراسة وتحقيق الدكتور محمد مصطفى رمضان صوفية، ط١، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان طرابلس، ١٩٨٣م.
- الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه، اميليو غرسيه غومس، ترجمه عن الاسبانية حسين مؤنس، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٥٦م.
- الطبيعة في الشعر الأندلسي، جودت الركابي، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٥٩م.
- طبقات الشعراء، لابن قتيبة، ط١، قسطنطينية، عالم الكتب، بيروت، ١٢٨٢هـ.
- العقد الفريد، تأليف الفقيه احمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي المتوفى ٣٢٨ هـ، تحقيق د. مفيد محمد قميحة، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦ م، مج٢، ج٣.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تأليف ابي علي الحسن بن رشيق القيرواني الازدي، حققه، وفصله، وعلّق حواشيه، محمد محيي الدين عبدالحميد، ط٤، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٧٢م، ج١، ج٢.
- فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، ايليا الحاوي،
- دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، بيروت، لبنان، ١٩٧٧ م.
- في الادب الأندلسي، دكتور جودت الركابي، دار المعارف، القاهرة.
- في النحو العربي قواعد وتطبيق للنهج الحديث، تأليف الدكتور مهدي المخزومي، ط١، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده ١٩٦٦م.
- قلائد العقيان في محاسن الاعيان، تأليف ابي نصر الفتح بن عبدالله القيسي الاشبيلي، الشهرير بابن خاقان، ٥٢٩هـ حقه وعلّق عليه، د. حسين يوسف خريش، ط١، عالم الكتاب الحديث، الاردن، عمان، ٢٠١٠م.
- كشف المشكل في النحو لعلي بن سليمان الحيدرة اليمني ٥٩٩ هـ تحقيق الدكتور هادي عطية مطر الهلالي، مطبعة الارشاد بغداد، ١٩٨٤م، ط١، مج٢.
- لسان العرب للأمام العلامة ابن منظور، طبعة مراجعة ومصححة، بمعرفة نخبة من السادة الاساتذة المتخصصين دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٣م، مج٢، مج٦.
- المخصص، تأليف ابي الحسن علي بن اسماعيل، النحوي اللغوي، الأندلسي، المعروف بابن سيده، المكتبة التجارية للطباعة والنشر، بيروت، مج٤.
- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، عبدالله الطيب المجذوب، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٠م، ج٣.
- المستطرف في كل فن مستظرف، تأليف شهاب الدين محمد بن احمد ابي الفتح الابشيهي، شرحه وضبط هوامشه، الدكتور مفيد محمد قميحة، ط١، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٨م.
- المطرب من أشعار اهل المغرب، لأبي الخطّاب عمر بن دحية الكلبي، ضبطه وشرحه، د. صلاح الدين الهواري، ط١، شركة ابناء شريف الانصاري، بيروت، لبنان،

- ٢٠٠٨ م. - الموازنة بين ابي تمام والبحثري، لابي القاسم الحسن بن بشر الأمدى، تحقيق احمد صقر، ط ٤، مطابع دار المعارف القاهرة.
- ١٩٨١ م. - معاني الابنية في العَرَبِيَّة، د. فاضل صالح السامرائي، ط ١، ساعدت جامعة بغداد على نشره، بغداد، ١٩٨١ م.
- ٢٠٠٧ م. - المعرب في حُلَى المغرب لابن سعيد المغربي، حققه وعلّق عليه، د. شوقي ضيف، ط ٤، دار المعارف، القاهرة، ج ٢.
- ١٩٦٦ م. - مغني اللبيب عن كتب الاعاريب لابن هشام الانصاري، حققه، وفصّله، وضبط غرائب، محمد محيي الدين عبدالحميد مطبعة المدني، القاهرة، ج ١.
- ٢٠٠٧ م. - المكان في الشُّعر الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة محمد عبيد صالح السبھاني، ط ١، دار الافاق العَرَبِيَّة، القاهرة، ٢٠٠٧ م.
- ٢٠٠٧ م. - منهاج البلغاء وسراج الأدياء، صنعة ابي الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، ١٩٦٦ م.
- ٢٠٠٨ م. - الموازنة بين ابي تمام والبحثري، لابي القاسم الحسن بن بشر الأمدى، تحقيق احمد صقر، ط ٤، مطابع دار المعارف القاهرة.
- ٢٠٠٧ م. - نهج البلاغة وهو ما جمعه السيد الشريف الرضي من حُطَب ووصايا وكُتُب وكلام امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام، شرح الشيخ محمد عبده، طبعة جديدة منقحة، مصححة، خرّج مصادره، فائق محمد خليل اللبون، مؤسسة التاريخ العَرَبِيّ للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.
- ٢٠٠٧ م. - همع الهوامع جمع الجوامع في علم العَرَبِيَّة جلال الدين بن عبدالرحمن بن ابي بكر السيوطي، دار المعارف، بيروت، ج ٢.
- ٢٠٠٧ م. - وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، ابن خُلّكان، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ج ١.